بسم الله الرحمن الرحيم

دكتور عبد القادر فيدوح
جامعة البحرين
كلية الآداب
قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية

رهانات اللغة العربية في ظل العولمة

تحاول هذه الدراسة أن تقف عند جملة من الأسئلة الجوهرية المتصلة باللغة العربية وعلاقتها بالعولمة ، وتتصل أبعادها المختلفة إلى ارتباطها بالمكون الحضاري في حدود تواصلنا مع الآخر ، بدرجات متفوتة.

وبيْن معظم لغات العالم، الحية، تثير إشكالية اللغة العربية في مجتمعاتنا العربية حيزا معتبرا من الجدل حول إمكانية وجود علاقة هذه اللغة بالنشاط **الإبداعي / العلمي**، في وقت تحتاج فيه الأمة العربية بوجه عام إلى الدخول في خانة الإبداع الكشفي، التكنولوجي، والإسهام في صناعة التحديث الحضاري المنسجم مع مساعي الألفية الثالثة. وإذا كان ذلك كذلك فهل يمكن أن تسهم اللغة العربية في البناء الاجتماعي للأمة العربية في الألفية الثالثة ؟ ثم كيف تحافظ مؤسسات المجتمع المدني على اللغة بوصفها عملة متداولة بين مجتمعنا؟. وقد يكون أجدى في هذا المقام أن نبحث عن المبادئ والقيم التي تجعل من اللغة العربية لغة معارف علمية . وقبل ذلك كيف نحافظ على هذه اللغة الرصينة في بيانها ؟ وكيف ندفع بها إلى مواكبة العصر ؟.

إن تنمية القدرة اللغوية في **أبسط أداء لها** هي تحسين مستوى التعبير، ولعلنا ندرك خطورة هذه البداهة عندما نستشف محصلة اللغة التداولية بين شبابنا وهو خالٍ ،وفارغ من أي رصيد لغوي سليم.

وبالنظر إلى لكنة القول، وعجمة اللسان التي استبدلوا بها سلامة اللغة ــ على الأقل ــ في وضوح نطقها في العهد القريب جدا فإن ما يروَّج له من تداول لفظي في لحن القول، وتلكؤ اللسان، لا يُظهِر ما يُخفي صدر القائل؛ لعجزه عن التعبير وعن مكوناته، أضف إلى ذلك أن ما نجده في تأنق كلام بعض إعلاميينا ، وتنطعهم بالكلام الدارج ــ وحتى بعض المسؤولين ــ على مساحة وسائل الإعلام المتعددة ما يفسر مقتهم للغة العربية ، وكأن البغضاء تبدو من ألسنتهم؛ الأمر الذي انعكس سلبا على جيلنا المتخذ من مسئولينا ومثقفينا وإعلاميينا قدوة بالنظر إلى لسان واقع الحال، فكيف بهذا الجيل يفكر في تجديد لغته بما يتناسب مع متطلبات العصر.

أمام هذا الخطر المحدق لابد من إيجاد سبل تحرك تفعيل اللغة العربية في وطن وضع في مبادئه العامة ضوابط تحكم المجتمع المدني بمواثيق للغة العربية بوصفها اللغة الوطنية الرسمية.

تحديات صارخة :

يعد الحديث عن اللغة العربية المتعثرة في المجتمع العربي سابقة خطيرة ينبغي تداركها ، وهي ظاهرة لم يشهدها الأوطان العربية حتى إبّان الاحتلال الذي حاول طمس أثر اللغة العربية من ذاكرة الثقافة العربية الإسلامية .

وإذا كانت اللغة العربية في السنوات الأخيرة تشهد تراجعا مثيرا ولافتا ، نظرا إلى حدة خطورته ، فإننا نخشى أن يمتد هذا التراجع ليصبح مرضا ــ لسانيا ــ مزمنا يصعب علاجه . ولعل سبب تخوفنا يكمن في الفزع من التأثير السلبي على صياغة أفكار جيلنا الواعد، وعلى سلوكه المعرفي والأخلاقي ، ومن أجل ذلك يفتَرض أن يكون لدى مسئولينا المبادرة الحاسمة في اتخاذ ما يلزم بغرض التصدي لهذا الهاجس المرعب والمخيف على مكونات ثقافتنا وهويتنا.ومميزات لغتنا التي تنتظر منا ضرورة استخدامها الاستخدام الأنجع بالوسائل التكنولوجية في تعلمها وطرق الابتكار بها.

وفي اعتقاد الكثير من الباحثين التربويين ومنظري المعـــارف والعلـــوم أن أي شخص لا يمكنه أن يرتقي من نقص في مهارة التعبير، والتوسع والـــتمكن منهـــا، إلا بالوصول إلى مطلوب اللغة، وقد أثبتت الدراسات العلمية أن تشخيص اللغة لدى الفـــرد يكمن في توسع بُعد النظر، ومحو المجهول، وتثبيت المعلـــوم، وتقريـــب المقـــصود، بسرعة يصعب فيها على غير المتعلم، أو المتمكن من الكفاية اللغوية، إدراك الأشياء ، في حين يسهل على المتعلم كشف الحقائق والتعبير عنها بيسر ؛ الأمر الذي يسهم فـــي نمو معارفه وأفكاره في الحياة العملية والعلمية ، وحتى يصبح موقع اللغة على خريطة المعرفة العلمية المبتكرة.

كما أن الكفاية اللغوية تعتبر حصانة لحسن الطوّية ، وضمان مـــن أي ضـــرر يهدد المجتمع ويخل بالأمن الفكري ـــ على وجه التحديد ـــ بوصـــفه لـــبّ الجوانـــب الأمنية الأخرى ، وخالصها، وخيارها في شتى المجـــالات ســـواء منهـــا الثقافيـــة، أو الاجتماعية، أو السياسية، أو الاقتصادية إلى غير ذلك من دعائم المؤسسات الاجتماعية وسندها القوي.

ومن هذا المنظور يكون من بابٍ أولى الوقوف بحزم أمام تفشي ظـــاهرة لغـــة الشارع الهابطة المستمدة من فوضى التأثير بالعولمة اليقافية التي تـــشيع فـــي أوســـاط شريحة عريضة من مجتمعنا، حتى باتت تدخل الأوساط الرسمية سواء عبـــر وســـائل الإعلام، أو في المحافل الرسمية ،كما باتت تنافس اللغات الأخرى المستعملة ، وهـــي اللغة العربية ، واللغات الأجنبية. وقد يكون من تفشي هذه الظاهرة الغريبة ـــ ســـواء عن قصد أو عن غير قصد ـــ هو إفساد الذوق اللغـــوي المعهـــود ، بفعـــل ســـياقاتها المنحرفة التي يتكلم بها شبابنا برطانة، وبلهجة ملتوية، قد يصعب فهمها أحيانـــا حتـــى في المنطقة نفسها، كونها مركبة من معظم اللغات كالفرنسية، والإنجليزية ، والإيطاليـــة ، والإسبانية ، والبرتغالية ، وقد لا نستغرب إذا تأكدنا من توظيف كثير مـــن الكلمـــات الصينية مؤخرا ، والحبل على الجرار . كل ذلك من شـــأنه أن يجعـــل الفـــرد غيـــر محصن، مما قد يتسبب في زعزعة الحيـــاة والاســـتقرار الأمنـــي ، أو الـــسياسي، أو الاقتصادي، والإضرار بالتركيبة الاجتماعية والثقافية، ولنا في ذلـــك تجربـــة مريـــرة

نعيشها اليوم ، ماثلة في غياب خطة استراتيجية موحدة بين الدول العربية التي تشكو من فوضى المعلومات ونظم الاتصالات وعدم استغلال المخابر العلمية التي لا تتيح إمكانية التواصل مع الآخر بصورة جيدة ،كل ذلك بسبب التلوث اللغوي الذي أثمر تلوثا فكريا ، حين رُفعت الأقلام وطويت الصحف ، وأحضِرت الوسائل غير المبررة التي استوجبت الخرق، وتجاوز المعقول، حتى أصبح كل واحد منا في حكم قول الشاعر :

لعَمْرُك ما أَدْري وإني لأَوْجَلُ   على أينا تغدو المنية أول

فتسرع الفعل الأرعن ، والقول الأهوج ، وعمَّ الهوس عقول الكثيرين . وقد ذكرنا في مناسبات عديدة **أن إمساك قلم بيد ضمان لإبعاد هذه اليد عن وسيلة جارحة** التي من شأنها أن تؤدي إلى التشدد في جميع مراميه ومقاصده ، من أي اتجاه كان يسعى إلى زعزعة الاستقرار الفكري وإثارة الفوضى الثقافية .

ومن هنا ندعو مسئولينا ، مستغيثين بصرخة عمورية ، تدوي في أرجاء أوطاننا العربية والإسلامية، طلبا للنجدة من قرار سياسي شبيه بقرار المعتصم الذي لبى نجدة " **وا معتصماه**" ، ولتكن هذه صرخة كل مواطن غيور على وطنيته لإنقاذه من تفشي جرح نزيف هجرة الكفاءات التي من شأنها أن تسهم في جعل اللغة العربية منافسة للغات الأخرى والإفادة من تجاربهم العلمية بخاصة منها الاختصاصات المعمّقة في مجال تقنيات المعلومات والاتصالات،أضف إلى ذلك أننا إمكانية استثمار اللغة العربية في مجالها العلمي وارد إن بادرنا باستيراد التكنولوجيا بهدف توطينها والكشف عن ملابسة تعزيز اللغة العربية في ظل المساعي الحثيثة لتطور تكنولوجيا المعلومات ، وإذا كانت التكنولوجيا شديدة الارتباط بالبحث العلمي فمن باب أولى الاهتمام بكيفية تطوير لغتنا التي لديها من القابلية ما يسع احتوائها لغات العالم ، هذا إذا الرغبة الصادقة في مد الجسور بين اللغات الأخرى واللغة العربية ، وفي الحاجة إلى مواكبة التطور المعرفي وتشجيع البحث العلمي حتى نرد لأبنائنا الفرحة المقرونة

بالرغبة في التواصل مع الآخر، وبطلاقة اللسان المعبرة عن مكنونات صدورهم، ونستنهض همتهم لتحقيق وعد المجد الحضاري، ولنزرع فيهم الإيمان بلغتنا الجميلة التي تشوهها رياح الشمال ، وتضرم فيها النار، ولم تتركها هذه الرياح في إلهاب نارها ، وتزويدها بالحطب، كلما خمدت، وسكن لهيبها؛ الأمر الذي أوصلنا إلى مفترق الطرق. وكم نحن بحاجة إلى اللجوء إلى إحكام العقل في خلق رؤية استراتيجية واضحة المعالم لتحصين لغتنا بالثراء المعرفي والزاد العلمي للمساهمة في الحفاظ على سلامة التفكير السديد، وإبعاد لغتنا عن الزيف اللغوي الفاضح.

أما أن يكون بعض من مسئولينا يتهربون من تحمل مسئولياتهم الوطنية، والعَقَدِية؛ لانغماسهم في غمرة الحياة السياسية، أو بدوافع أخرى مجهولة الهوية، فإن ذلك ما يدعو إلى الدهشة، خاصة عندما نجد في اعتذاراتهم من طلب نجدة اللغة العربية، قولهم أن هناك أولويات اجتماعية، أو سياسية، أو أمنية ، أو ما شابه ذلك، وأكثر من هذا وذاك قد يكون التهرب بداعوى واهية، مفادها أن لغتنا لم تعد قادرة على مواكبة العصر، أو لعدم توافرها على الشروط المتماشية مع الابتكارات العلمية (!...)، ولعل في هذا " **عذرا أقبح من ذنب** " وكأننا بهم يعالجون بالخطأ خطأ أكبر منه، بعد أن طغى بهم دَمُهُم إلى التشدق بالوهم، على حساب المصلحة الوطنية، واعتقادا منهم أن تقربهم من الآخر شفاعة لهم ، وفي هذه الحال نعتقد جازمين أن كل من يحكم على عجز اللغة العربية في عدم استيعابها مستجدات الحياة والمعارف ، فإن نظره قاصر إلى حد بعيد ؛ إذ العجز والقصور ليس في اللغة ولكن في أصحاب اللغة ؛لأن اللغة بأهلها ، تموت بموتهم وتحيا بحياتهم . ونحن الذين نقدم الزَّاد للغة، وليست اللغة هي التي تقدم لنا الزَّاد، وبالتالي فالقضيَّة قضيَّة أصحاب اللغة، ومن ثم فإن المسألة هي في جفاف العقل العربِي وجموده، كونه تعود على التَّعالم، واستسهال الأمور باللامبالاة ، والاكتراث بالعلم والمعرفة، وهو ما أَفْقَدَنَا الرضا في كل شيء، ووُضِعْنَا وراء تجاهل مطالب التزود بتكنولوجيا المعلومات والمعارف، حتى ظننا أننا جهلاء فعلا ، مع أن الحقيقة غير ذلك على وجه الإطلاق، بدليل مجرد هجرة أدمغتنا تبدو على محياها روح الإبداع ، وتشرق على وجوههم ابتسامة التفاعل مع المطالب ، وتتحرر عقولهم

من كل قيد ، وتعطي أياديهم كل ما تملك، وتسهام في صنع التحديث الحضاري. فـأين هذا من ذاك؟ وما الذي غير الوضع؟ وأسئلة كثيرة تنتظر إجابات وافية(!...) ...؟ .

اللغة العربية بين المعمول والمأمول :

تواجه اللغة العربية في قضاياها المعاصرة تهديدات عديدة لم تعد قاصرة علـى عامة الناس، بل أصبحت همَّ المتخـصص فـي دراسـتها، كالأديـب ، والإعلامـي، والملعلم، والطالب الجامعي،...إلخ . أضف إلى ذلك أنها أصبحت تشغل بـال جميـع الشرائح الاجتماعية في معاناتها من آثار رياح العولمة، في الغالب الأعم، وتأثير ذلـك على مستقبل اللسان العربي الذي أصبح بدوره متخَبِّطا بعشوائية بين اللغة المعمولـة ، المستعجمة، واللغة المأمولة، المجهولة الهوية، التي نجهل مستقبلها، بعد أن فقدت اللغةُ المحافظةَ على الأدنى من الضوابط، ووصلت إلى الـدرك الأسـفل مـن الانحطـاط والتراجع.

وتمر الهوية العربية بوجه عام، واللغة العربية على وجه الخـصوص، بأزمـة خانقة، ورِدّة في المبادئ، وهي أزمة لم تشهدها الأمة العربية في تاريخها ، على النحو الذي يجسده منعطفها الأخير في هذه الآونة، وإذا لم نتدارك الخطأ بالصواب في حينـه سوف نسجل وصمة على جبين كل من عاش في هذه المدة، التي يمكن أن نطلق عليها "**مرحلة الاستخذاء والخضوع**"، أو على كل من أسهم بشكل مـا فـي انهيـار مجـد الحضارة العربية وإذلالها؛ الأمر الذي انعكس سـلبا علـى بـراءة براعمنـا ــ فـي مجتمعاتنا العربية ــ المورَّثة [بفتح الراء وتشديدها] تبعات اليـأس ، ومعـاوِل هـدم الهوية من سياسة مكر الماكرين في الوطن العربي الذين كرَّسوا سياسة الهروب إلـى الأمام ، والتملص من المسئولية، واستحباب الضلالة على الهدي، فكان من ثمرات ذلك الهوان خلق جيل سمي بجيل الفشل، حيث فقد البوصلة ، وتحالف مع اليأس ، فلم يعـد يدري إلا ما هو سلبي، بعد أن سُدَّت في وجهه الآفاق التـي جعلـت منـه مـشحونا ومأزوما، وفاشلا فشلا ذريعا في تحقيق الآمال ، على الرغم من انتماء كثيـر مـنهم، وولائهم للوطنية.

والحال هذه، لا سبيل إلى الحل إلا بضرورة البدء، والتحليق، وتــدارك الأمــر، بخطى راسخة، والاحتكام إلى التؤدة والأناة، وهي الدعائم التي يمكــن أن نتقــي بهــا التسرع في الحكم على اللغة العربية من بعض الناعقين، والناعرين، والمرتعدين مــن شدة التخوف من التحكم فيها، كونها في نظرهم لغة التخلف. ولو أنهم أعطــوا لفطنــة بصيرتهم قليلا من التأمل، ولحاشية إدراكهم نصيبا مــن المــسئولية ، وفرصـــة مــن التروي، ومَلِيًّا من التفكير بالعودة إلى الهوية ؛ لانبعث منهم رأي ثاقب، وعقل راجــح، بعد المزيد من الرصانة والتأمل ، ولأدركوا أنه مهما تقربوا من الآخر ــ أيا كــان ــ لن يشفع لهم بانتمائهم إليه، امتثالا لقوله تعالى: { وَلَــن تَرْضَــى عَنــكَ الْيَهُــودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْــدَ الَّــذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ} (البقرة آية 120).

إن أخطر ما يدعو إليه هؤلاء الأعمياء هو العمل على استبدال اللغــة الأجنبيــة باللغة العربية في مسارها الوظيفي في حياتنا الاجتماعية ضــمن المــساقات العلميــة والإدارية، وفي شتى المؤسسات التعليمية، والمدنية، والاقتصادية، والإعلامية إلى غير ذلك من المسارات التي رأوا فيها المنقذ من الضلال (!..) غير أنه في اعتقادنا، كمــا هو الشأن لدى الكثير من الغيورين على هويتنا أن كل من يصر علــى إبعــاد اللغــة العربية من خارطة الذاكرة العربية هو قاصر النظر، وعاجز عــن خلــق المبــادرة، وتقاصرت مواقفه، وتضاءلت أنفته، وقلت نخوته، واهتزت مروءتــه تجــاه حــضارته ووطنه.

لقد اكتوينا بحمى الشعارات الجوفاء التي تحمل، مناصــرة، لافتــات التعريــب الادعائية بما ليس يراد له، تلك الحملات التي استغلها البعض بدافع تنظيم جودة اللغــة العربية، حتى أصبحت كلمةَ حق يراد بها باطل، حيث وُظِّف حقُّها في الاســم ، بينمــا وُظِّف باطلُها في المسمى الذي كان يراد منه التشويه من قبل بعض الفئات، ومــن دون أن تكون لدى الجهة المخلصة لتلك الحملة الكفاية لإنضاج الفكــرة، وطرحهــا بــشكل مدروس ، أو إيجاد محاولة جادة لوضع التعريب على النهج السليم، المراد له، كبــديل فعلي وعملي للغة الأجنبية التي تربعت على عرش التسيير الإداري والساحة الثقافيــة منذ أمد طويل، بعد أن اعتمد أنصار هذه اللغة على السير قدما في تثبيت هذا التوجــه،

وكأننا بهم يستندون إلى الركيزة الأساسية ــ لتحقيق أمن اللغة الأجنبية ــ التي أطلقها لويس التاسع في أثناء حملته على مصر لاستعادة شرف الصليبيين والتي وقع فيها أسيرا ، وبعد أن أطلق سراحه مقابل فدية قال قولته الشهيرة والمجسدة إلى يومنا هذا في كافة مستعمرات فرنسا : " **لقد تكسرت الرماح والسوف فلنبدأ حرب الكلمة** " وها نحن نسير على خطة لويس التاسع بخطى وقع الحافر على الحافر؛ لنتمم له مسيرته وفاءً لأمنيته(!...) ولا غرابة في ذلك، وبعد أن استتب أمن الغرب ــ عبر شتى المجالات ــ في أوطاننا بفعل اللغة .

وأمام هذه الحال ، وفي مواقف عديدة تصب في التوجه نفسه، كيف السبيل إلى الخروج من عنق الزجاجة، حيث انهيار روح الأمة العربية ــ بوجه عام ــ وإرثها الحضاري الزاخر، وفقدان لثقافتها الغنية، وطمس لهويتها الشامخة. وهل ندرك معنى: أن لغة الآخر إذا استبدلت باللغة الأم وانحدرت إلى الحضيض " **أسرعَ إليها الفناء** " ؟ أم أننا في حكم مقولة ابن خلدون التي نظرت إلى " أن المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب في شعاره، وزيّه، ونِحلته، وسائر أحواله". **أ هذا هو موقعنا في الوجود؟ أ هكذا يراد لنا أن نكون ؟**. وفي المقابل ما هو الدور الذي قام به نظام تعليم اللغات الأجنبية في الوطن العربي بوجه عام منذ وجودها حتى يومنا هذا ؟ وما هي النهضة التي قامت بها هذه اللغات بعد أن كرسنا لها الأموال الطائلة؟ وهل حقيقة اللغة العربية جامدة ؟ وإلى أي مدى نجحنا في إنقاذها من هذا الجمود؟ وكيف نضمن لها النجاح حتى تغدو لغة مأمولة علميا؟

ومن المؤسف أن نقول: إن آلية التفكير في الوطن العربي مازالت تتعفر في وحل العجز المنهجي، وأن القدرة على غربلة الأمور بالنظر العقلي أبعد ما تكون عن التفكير العربي ، والإفادة من طرائق البحث العلمي أصْعَبُ في استثمارها . وبالجملة فإن الذاكرة العربية في تضادٍّ مع الوعي المتشبع بروح العصر، هذا الوعي القادر على تَمثُّل المستجدات، وتكيفها مع مقومات ثقافته. وحتى في حال إيجاد فئة تسعى إلى تفعيل اللغة العربية، فإنها تحاول العودة بنا إلى الوسائل القديمة ، والقفز بنا إلى الوراء بدعوى تقديس اللغة، كونها توقيفية، من دون امتلاك القدرة على دعائم التطور

الحضاري والوسائل التربوية الجديدة ، وكأننا بهذه الفئة تستنزف طاقتها رغبة في تحقيق انتصارات وهمية ، ضاربة عرض الحائط الواقع المأمول، المشرئب إلى لغة قادرة على مواجهة التحديات ، وليس ذلك على اللغة العربية بعزيز إذا كان القرار حاسما من المعنيين بالأمر، وفي حال أوكدوا العهد بينهم وبين هويتهم.

إن هناك فجوة عميقة بين واقع اللغة العربية المعمول وأفقها المأمول، ولعل الفرق بين الموقفين يكمن في هذه الفجوة التي هي داء الحقيقة، كونها لا تحمل هدفا ، وأن دعاة هذه الفجوة يحملون قناعة مضللة مفادها أن العجز والتخلف مضروب علينا بوساطة هذه اللغة ،وكأننا بأنصار هذه الدعوة المغرضة ــ التي تحمل مقاصد خلْفها ميول وأهواء ــ لا يرون أبعد من أنوفهم، بعد أن أعرضوا عن الحق وأقبلوا على الباطل، فتصوروا أن الأفكار والثقافات يمكن أن تستورد كما تستورد البضاعة الاستهلاكية، وأن اللغة الأجنبية هي النموذج المثال، ومن دونها نعيش في تخلف ، بينما هم في حقيقة الأمر، نعتقد أنهم، يحلقون خارج السرب ، وخارج نسيج النسق الثقافي المتجذر؛ لأن واقع الثقافة أكبر من جَذْر اللغة العربية واستئصالها، وأكبر من اكتساب لغة أجنبية لا تحمل سمات المجتمع، ولا تطبع خواصه. من هنا كان الصراع بين المتغربين بانتهاجهم مسلك اللغة الأجنبية سبيلا ، وبين الواقع المتشبع برصيده اللغوي الأثيل؛ الأمر الذي خلق واقعين متضادين كل منهما يصارع طواحين الهواء ــ كصراع دون كيشوت الذي لم يحصد من وراء صراعه أي جدوى، ومع ذلك كان يحاول أن يستمر في النزال ــ فتشتت السبل من وراء هذين الواقعين : واقع متغرب في تشبثه باللغة الأجنبية، وواقع متعرب، في تمسكه بدفاعه عن اللغة العربية التليدة، وضاع الطرف الثالث ، وهو ما يمكن أن نطلق عليه" **فضاء الصوت الصامت**" ، وعلى الرغم من صمته إلا أن بصيرته كانت تحمل راية تفعيل اللغة العربية بحسب مستجدات الحياة العصرية في أدائها، وجعلها قابلة للتحاور مع العلوم والمعارف ، وإذا كان هذا الطرف ــ الثالث ــ قد وجد صعوبة في خلق بديل، قوامه تفاعل اللغة العربية مع متطلبات الحياة ، فإن الطرفين الأولين ظلا يتعفران في مرتع حظيرة يتجاذبهما صراع الثيران ــ سقط في هذا الصراع مسعى اللغة العربية تحت الحوافر، حيث رأى كل طرف في موقفه التِمَاعاً، بينما هو صراع قادنا إلى خط الانحدار، فظل الصراع

وضل الهدف ، وكأن المواجهة بينهما " أشبه بتلك المعارك التي كنا نألفها جميعــا فـــي المراحل المبكرة من أعمارنا، حين يقف أحد الطفلين على عتبة البيــت الكبيــر الــذي يسكنه إخوته وأبواه وأجداده وأعمامه ويواجه طفلا غريبا عن الحي، فيستطيع بــصيحة واحدة أن يتسنفر عشيرته كلها لنصرته، على حين يقف الآخر مترددا في استخدام مــا يملك من قدرات؛ لأن الأرض التي تدور حولها المعركة ليست أرضه."[1] وهذا هو حال اللغة الأجنبية أنَّى كانت، شأنها شأن هذا الطفل الغريب عن الحــي . وليــست اللغــة العربية أكثر حظا من اللغة الأجنية في مثل هذا المقف حين نــستنفر لحمايتهــا شــأن استنفار عشيرة صاحب الحي لنصرته؛ إذ النصرة والحماية لا تأتي بالحَمِيَّة والتعــصب والفظاظة ، وإنما الاهتمام المتنامي بموضوع كيفية الجودة هو سبيل القصد المنهجي.

اللغة العربية في ميزان العولمة

كثر الحديث في الآونة الأخيرة عن مكانة اللغة العربية بين لغات العــالم ، كمــا يكثر الحديث عن دورها المعرفي في ظل العولمة ، وهل حقيقة ما يروج مــن أن دور اللغة العريبة ينحسر في امتداد مسيرتها المعنوية والأخلاقية ؟ وإلى أي مــدى تكــون أقرب من العلوم الإنسانية، وأبعد ما تكون من العلوم الدقيقة وتكنولوجيا المعلومات .

ويبدو أن أهمية التساؤل عن مكانة اللغة العربية مشروعة، ومشفوعة، بتحــسرنا على دورها، وتلهفنا على مجدها، بعد أن كان لها موقع الصدارة في يوم الفتوحــات ، بما أتيح لها من دور فاعل في الوجود الحضاري .

وإن الحديث عن اللغة العربية بهذه الطروحات يقودنا إلى الحديث عن المعرفــة بوجه عام ،وفي حال إمكان ربط العلاقة بين الدور المنوط بها والرغبة في النهــوض بالحركة العلمية ، نصل إلى أن اللغة العربيــة لا تــشكل الواجهــة الحقيقيــة لمــسار

---

[1] ينظر ، عبد العظيم الديب : التبعية الثقافية ، وسائلها ومظاهرها، ضمن كتاب ندوة الثقافة العربية الواقع وآفاق المستقبل ، جامعة قطر ، 1993 ، ص 338 .

الاكتشافات العلمية ، وهذا يجرنا إلى عدم وجود مناخ علمي، ناهيك عن وجود عوامل من شأنها أن تسهم في شيء اسمه " **علم** " في المعمورة العربية. ولكن، أين الخطأ هنا ؟ في اللغة أم في راعي هذه اللغة؟ ذلك أن مرتكزات العلم ــ أنَّى كان موقعه ــ بحاجة إلى مبادرة وإلى قرارات مسئولة وحكيمة، وتبقى اللغة هي الوسيلة لتنفيذ ما تستوجبه هذه الأحكام والقرارات لإمكان بلوغ مرامي الكشف العلمي، والوصول إلى تحقيق أهدافه النبيلة، ولا غرو أن يكون هذا عزيز المرام في حال وجود العزيمة ،وأملنا في ذلك كبير، ولكن :

علی قَدْر أَهْلِ العزْم تأتي العزائِمُ   وتأتي على قدر الكرام المكارم

وفي خضم الرهانات المزايِدة [بكسر الياء] للذهاب بلغة ما إلى أبعد من الثانية في اكتشافاتها ، أو تقربها من اللغة الإنجليزية التي أصبحت تهيمن على العالم، بوصفها اللغة النموذج على مختلف مستويات الحياة العادية ، ناهيك عن مستوى تكنولوجيا المعلومات، في ظل هذا الإشكال أصبح من المسلمات أن اللغة العربية إذا لم تواكب الاكتشافات العلمية فإن استمرار بقائها مرهون بعزيمة أهلها، وبإسهامهم في صنع مقومات الألفية الثالثة، وعواملها التي بها تقوم، وإن أبقيناها على عهدها ، ولم نسهم في تفعيلها بحسب مستجدات العصر، فإن أدوارها ووظائفها ستتضاءل ، وتركح إلى ركن عديم الجدوى، وأكثر من ذلك قد نتسبب في تحجيمها ، وتلجيمها على الرغم من حمايتها من القرآن ، ووقايتها من المرجعية الحضارية، أو تتقاعس هممتنا ، وتتهاون قدرتنا ، وتقصر إرادتنا فنسهم ــ بوعي أو من دون وعي منا ــ في موتها على حد ما قاله أدونيس "ورغم أن القرآن الكريم يحفظها، إلا أن عدم الجدية في قراءة القرآن، يجعل موت اللغة العربية فرضية يجب النظر فيها[2] ، من هذا المنظور يجب التأمل بجدية في مصير لغتنا التي تمثل هويتنا أمام الزحف الجارف، والسيل الكاسح لمظاهر العولمة، حيث أجمع جل الباحثين في مختلف أنحاء العالم أن عولمة الثقافة، وتربع اللغة الإنجليزية على رأس قائمة اللغات العالمية يعد أكثر خطورة على اللغات

---

[2] في محاضرة ألقاها بالمجمع الثقافي ضمن فعاليات "معرض أبوظبي الدولي للكتاب"ينظر ، http://www.alarabiya.net/

الوطنية من الغزو الاستعماري على الأوطان، وذلك من خلال إضعاف هويتها ، وسلخها من شخصيتها؛ الأمر الذي ينعكس سلبا على بناء ثقافة الناشئة ، وخلخلة هويتهم العربية الإسلامية .

وقد يبدوا للرائي أن هناك اهتماما متزايدا من قبل المعنيين، في المؤسسات، بشأن تنمية اللغة العربية في الوطن العربي، غير أن هذا الاهتمام في خلفيته ــ بحسب منطق اللامقول ــ يبدو هَرَمًا معكوسا ، أو في شكل هندسي مخروط ، قاعدته مستديرة تعكس الإحاطة المركزية في جوهرها بموضوع التعريب، بينما تعكس نهاية هذا المخروط نقطة رأسية ضيقة ، تعكس نتيجةً مقصودة ، عديمة الأهمية، ومفرّغة من ثمينها النفيس، ومن معدنها ، ووضعت موضع عنق الزجاجة، فأريد لها أن يكون من ثمارها التعريب، وتحويله إلى " جعجعة بلا طحين" ولم نجن من هذا الطحين غير الإحباطات والانتكاسات، ولم نجد ما يشفع لنا غير البكاء على " ليلانا " مُذْ كانت مجد الشعر العربي، ورمز القافة العربية التليدة.

لقد بدأت ظاهرة العولمة تؤثر تأثيرا سلبيا في جميع المجالات، بخاصة ما يتعلق بالثقافة في مضامينها وأهدافها ، وعلاقة ذلك باللغة القائمة على أجواء هذه الثقافة التي أصبحت ممسوسة بخروقات العولمة المموِّهة للحقائق ، والمفسِدة للمرجعيات، " وإذا كانت العولمة الاقتصادية واضحة كل الوضوح ، فإن العولمة الثقافية ــ على العكس من ذلك ــ ليست بنفس وضوح العولمة الاقتصادية . كما أنه إذا كانت العولمة الاقتصادية تبدو للبعض مكتملة على أرض الواقع ، والعالم أوشك أن يكون معلوما عولمة اقتصادية كاملة ، فإن العولمة الثقافية ليست بنفس القدر من الاكتمال"، [3] نظرا إلى ما ينتابها من شكوك في محاولة الهيمنة على العالم، كونها موضع الريبة والقلق والاضطراب .

[3] عبد الخالق عبد الله : العولمة ــ جذورها وفروعها وكيفية التعامل معها ــ عالم الفكر 28/2 أكتوبر ، ديسمبر ، 1999 ، ص 74 .

ويعتقد أنصار هوس العولمة من بني جلدتنا ــ العَقَقَة ــ أن للغة العربية إخفاقات كثيرة منها :

- زوال صفة ثبات اللغة العربية أمام اللغات الحية.
- انتفاء القيمة الجوهرية للغة العربية في ظل العولمة.
- عقم الثقافة العربية لا يشجع على تبني اللغة العربية وإحيائها.
- انقطاع الثقافة العربية عن دوران الركب الحضاري، فانقطع بها حبل التواصل.
- عجز الوعي العربي عن تمثّل روح العصر والدخول في الألفية الثالثة.
- عدم الإسهام في مشروع الحداثة وانبتات التواصل مع ما بعد الحداثة.

أمام كل هذه المثبطات ــ وغيرها كثير، لكفاية ما ذكرنا ــ يبدو على أنصار النموذج الغربي، في حَرْفيته، الرغبة منهم في إلحاق ثقافتنا بالغرب، متناسين أن الغرب لا يعترف بغير ذاته، وكل ما يصب في اهتمامه بالآخر لا يخدم إلا مصالحه، في وقت كان مناصروهم "**ملكيين أكثر من الملك**" ، ومهما تنطعوا في لغة الآخر، أو تراطنوا، لن يكونوا إلا أداة طيعة لمحاولة تدجين ثقافتنا وترويض وجودنا ، وقد أصبح هؤلاء الأنصار بيادق لعبة شطرنج في أيدٍ متقنة. لذلك نعتقد أن سبب مشاكل أمتنا العربية، وتخلفنا، وتراجع لغتنا، وحضارتنا هو تعصب هؤلاء لثقافة الآخر وارتباطهم به ارتباط اللحم بالعظم ، سواء في أثناء حقبة وجود المستعمر في أوطاننا ، أو عندما خرجوا ، بعد تفطنهم أن بقاءهم في هذه الأوطان لا يخدم مصالحهم بالقدر الذي يخدمها وهم خارجه، على نحو ما قاله جاك بيرك حين نصح فرنسا : " **إذا أردتم أن تبقوا في الجزائر فاخرجوا منها** " ولا أدري هل بمقدور عربي واحد أن يصرف وجهه عن هذه المقولة في تطابقها مع بعض الشرائح في مجتمعنا من الذين استقوَوا أبرياء الذمة، سواء في الجزائر أو في باقي الدول العربية التي رزحت تحت وطأة حروب الاستعمار، ووهنت بداء الاستغلال.

وإذا أريد للغة العربية أن تكون غريبة في أوطانها فبفعل حدة المدافعين عن اللغة الأجنبية ، بوصفها لغة وظيفية تمارس في مواضع عملية ميسرة مثل السيرورة

العلمية، والاقتصادية، والإدارية، ممارسة فعالة، بينما هم في واقع الأمر إنما يـدافعون عن ضمان تعزيزهم، والتحكم في التدبر والتدبير، مفضلين مصالحهم الشخصية علـى معزة الهوية. من هنا جاء رد فعل الجيل الناشئ، الذي كنا نراهن بـه علـى الوعـد الناجع، سلبيا من دون وعي منه بإدخال لغة ـ أو بالأحرى لهجة ـ ثالثة جعلت مـن حديث الشارع، وحديث السوق، وحديث عامة الناس معجما لـه ، يـستقي مـن هـذا الحديث المائج فيض اصطلاحات هذه اللغة العفنة التي دبّت ونَمَت بشكل لافت، وجالب للنظر، وداعٍ للحيرة ،حتى أصبحت دارجة في المؤسسات التعليمية ، ووسائل الإعلام، واللافتات، والتظاهرات على الرغم من كونها هجينة وساقطة ، وكأن اللغـة العربيـة أصبحت في خبر كان ، ولم تعد تفي بالغرض ، وتجاوزتها الأحداث بحـسب تـصور هؤلاء المهجّنة، وبسلوكهم الهجين ، ولسانهم المعتل ، ولعل في قول الشاعر ما ينطبق عليهم :

لا تُسابقْ في حَلْبة العزِّ ذا العِلم فما للهجين شأنُ الجوادِ

إن التعصب للغة الأجنبية، بدافع مسايرة العولمة ومشتقاتها من الوسـائل المـدمرة للهوية الوطنية ـ حيثما كانت ـ في جميع أنحاء المعمورة، من شأنه يـضعف لغتنـا التي صمدت في وجه كل المؤامرات عبر العصور، وإذا كان دعاة التعصب منطلقـين من قناعة أن اللغة الأجنبية لغة وظيفية في مجال التداول السليم للمعرفة والعلوم، فـإن الدراسات العلمية ، والتجارب الجادة ، والمستخلِصة لنتائج نفعية، وقـدرة متبـصرة ، أثبتت أن محركات البحث في الثورة المعرفية تقبل أي لغة يراد لها الحياة ، وأن آليـة هذه المحرِّكات في يد أصحابها ، وليست في اللغة ،وفي مثل هذه الحـال مـاذا يفعـل اللسان إذا كانت الجثة هامدة. ولنا في ذلك أمثلة عديدة ـ كما سيأتي الحـديث تباعـا عن بعض اللغات ذات الأقليات، وأثبتت وجودها علما وعملا ـ مثل اللغة الفنلنديـة ، والدنماركية ،والعبرية التي أصبحت بين عشية وضحاها لغة نووية. والقائمة طويلـة، عريضة، من اللغات التي تَمكن أصحابها من تطويعها وتفعيلها ، كونهم تبنـوا سياسـة لغوية حكيمة ، شأن الحكمة القديمة التي أطلقها الفيلسوف الـصيني "كونفوشـيوس " عندما دعا إلى تهذيب اللغة وتنقيحها حتى تسهم في وضوح الأمور وجلائها ، كونهـا

مصدر الصواب في كل شيء، بعد أن سئل عمّا يودّ أن يفعله إذا حكم البلاد. فــأطرق كونفشيوس لحظة، ثم قال: **أصّحُ أسماء الأشياء.** وما علاقة تصحيح الأسماء بــالحكم الصالح؟! أجاب كونفشيوس: **عندما تكون أسماء الأشياء مغلوطة يصبح الكلام غيــر صحيح، وعندما يصبح الكلام غير صحيح لا يجري العمل بشكل صحيح، وعنــدما لا يجري العمل بشكل صحيح يُصاب بالضرر كيان المجتمع، وعندما يُــصاب بالــضرر كيان المجتمع لا تعود العقوبات تناسب الجرائم، وعندما لا تناسب العقوبات الجرائم لا يعرف الناس ما يفعلون**[4]. ولعل في رسالة كونفوشيوس ما يفيد الأهمية القصوى التــي يمكن أن تكون عليه اللغة في تسمية الأشياء بشكل صحيح عن طريق اللغة، وهذا ليس أمرا هينا في حق مستقبل أجيالنا وهويتنا.

إننا بحاجة إلى قرارات مسئولة، وشجاعة، وحكيمة، لجعل اللغة العربيــة ناصــية اهتماماتنا، وذوقنا السليم، حتى لا تتأثر باللهجات في محيط استعمالها ، كما نجعل منها لغة تسهم في توطين العلوم والمعارف الجديدة ، وفي هذا ما يــشكل مــدخلا لثــورة " فكرية على من يصرون على اختصار اللغة والبحث اللغوي فــي النحــو والــصرف، واختصار النحو في الإعراب، وتجريد اللغة من جوهرها الثقافي والمعرفي، وجعلهــا وعاء فارغا بلا محتوى. واللغة أخطر من أن تترك لعلماء النحو وأســاتذته وحــدهم، وأكبر من أن تحصر في هذا الاطار الــضيق الــذي لا يتنــاول الغايــات والوســائل ومستويات اللغة: فصحى وعامية، واللغة والعلم, واللغة في عصر العولمــة.[5] واللغــة بهذا الشكل مسئولية القرار الحكيم قبل أن تكون مسئولية الجميع بخاص المدرسة التــي ينسب إليها فشل إتقان اللغة على الرغم من تحملها جزءا كبيرا من هذا الفشل.

اللغة العربية وثورة المعرفة

لقد أحدثت كثيرٌ من الثورات ـــ قبيل انثناء نهاية القرن العشرين، وبدايــة الألفيــة الثالثة ـــ تغييرات جذرية في تقنية صناعة المعلومة المعرفية، منها على سبيل المثال ، لا الحصر، ثورة الاتصال [بما فيها ثورة الميديا] والثورة الرقمية، وثــورة الجينــات،

4 ينظر الرابط : http://www.almosul.org

5 فاروق شوشة : إنقاذ اللغة.. إنقاذ الهوية .

وثورة الشيفرات الوراثية، واختراق الزمن، وابتلاع الضوء، وغزو الفضاء ، إلى غير ذلك من الثورات التي تَغيب عنها أي مشروع عربي يسعى إلى الانـدماج فـي هـذه الثورات ، أو الإسهام في بلورتها؛ الأمر الذي جعل الأمة العربية ــ بخاصـة ونحـن على إطلالة الألفية الثالثة ــ نعيش في ركح زاوية حادة، في انتظـار زحزحتنـا إلـى الهامش لنكون خارج الحدَث.

وإذا كان مركز العالم يتحول بدراسة محكمة، وبـرؤى اسـتراتيجية ، إلـى هـذه الثورات المعرفية، فإننا نأبى الخوض في تجربة المشاركة في صنع هـذه الثـورات ، وكأننا لا نشعر بقيمة فعلها المنجز إلا باستهلاك نتائجها، وما تحتويه مـن مـضامين، تصلنا بسهولة ويسر، ومن دون عناء يذكر. وقد ساعد علـى تأخرنـا، فـي جميـع المجالات ، إهمالنا لغتنا، وعدم معرفة الترويج لها لقصور التفكير، والإصابة بمـرض التعالم ، واهتمام العقل العربي بالشيئية، وذهان السهولة، حينما يبادر إلى حـل إشـكال صعب فيخرِّبه لعدم معرفته بالطرق السليمة لحل هذه الإشكالية ، أو هذيان الاسـتحالة ــ على حد رأي مالك بن نبي ــ عندما نرى " الأمور مستحيلة، ونقف أمامها عاجزين ، وهي في الحقيقة غير ذلك لعدم تمكننا من أدائها، لفقده الوسائل التعبيرية والمنهجية ، والكفاية القادرة على حلها،أضف إلى ذلك اعتماد التجارب الفارغة مـن أي محتـوى فكري.

وفي خضم هذه الأجواء العفنة لا سبيل إلى النهوض باللغة العربية ما لـم نحـسم طرق تدريسها ، والاهتمام بها في جميع المؤسسات حتى تصبح آهلـة للتعـايش مـع الألفية الثالثة، وتصبح قابلة للصرف مع الثورات المعرفيـة والرقـائق الإلكترونيـة، والابتعاد بها عن الانفصال الفكري المفروض عنا ، ومنا ، فـي الخارطـة العربيـة، وجعل الخطاب سائدا في جميع مرامي الحياة باللغة الأجنبية، مـن أدنـى مـستويات التوظيف إلى أعلى هرمه. ولعل هذا ما جعلنا محاصرين بقيود لغات الآخـر، وذلـك نتيجة تراكم قرون من الابتعاد عن وظيفة اللغة العربية والمعرفة النافعـة ، والعمـل

الجاد؛ لذلك أصبحت الأمة العربية ــ كما جاء في رأي مالك بن نبي ــ " كالفارس الذي أفلت الركاب من بين قدميه ولم يسترده بعد ، فهو يحاول أن يستعيد توازنه.[6]"

والحقيقة أن التحديات التي تعيشها اللغة العربية لا تقتصر على كيانها فحسب ، بقدر ما تمس ، هذه التحديات، كيان المحتمع العربي برمته، خاصة ونحن نعيش حالة الشغف بالاقتداء بالآخر [الغالب] في جميع مواصفاته ، متناسين مقولة ابن خلدون :" أن الأمة إذا غلبت، وصارت في ملك غيرها أسرع إليها الفناء". وكذلك بعد أن يفقد المجتمع فعاليته عندما تَنبتُّ الصلة بينه وبين لغته، وبين أفكاره المطبوعة وأفكاره الموضوعة.

ومن هذا المنظور استوجب الأمر منا ترسيخ حب لغة أحلامنا ، وارتباط روحنا بها، وهذا في تقديرنا أهم عامل، والأكثر أهمية، في بناء شخصيتنا. ولكن، كيف السبيل إلى ذلك ؟ ثم كيف السبيل إلى تطوير اللغة العربية في ظل اكتساح جرَّافة اللغة الإنجليزية بقية اللغات التي يراد لها الاستخذاء ؟ وكيف يرضى ذووها الخنوع والذل ، ويخضعون للآخر وإضعاف شخصيتهم؟ وقبل ذلك ما هي محركات تفعيل اللغة العربية في ظل العولمة ، وتكنولوجيا المعلومات؟

لعل أهم محرك هو التحصيل المعرفي، والتحصين الثقافي المترامي، مع العلم أن المعرفة تضمن للإنسان مجموعة محركات ، من أهمها:

- الزاد العلمي، وكل ما يُستخلَص من أنواع المعرفة.
- قدرة الاستيعاب.
- اكتساب الخبرة ، من عوائد المهارة اللغوية ، ومن الاستنتاج والتعمق في التحليل، والتبصر في التفكير.
- القدرة على التركيز.
- رفع المستوى السلوكي والأخلاقي الذي من شأنه أن يسهم في التفرقة بين الصواب والخطأ.

---

[6] مالك بن نبي : مشكلة الأفكار، 217 .

- تعزيز المهارة.
- تنمية القدرة الذهنية.
- ارتفاع مستوى أداب الجودة.
- تثمين القيمة، كونها السبيل إلى معرفة الصالح من الطالح، ومن يضلل المعرفة فلا سبيل له إلا العنف، وهو الحاصل في نسقنا الثقافي.

ومن الثوابت في الدراسات العلمية أن أية معالجة للتنمية البشرية لا تفلح من دون التعامل معها ضمن سياق تفتح عقول الناشئة على العمل المعرفي. وبنور المعرفة، من مهارة اللغة، يحصل منه نور اليقين، وبحصول ذلك النور تتضح الحقائق والأمور، أضف إلى ذلك أن إثارة الوعي بدور اللغة ، وما ينتج من ثمارها ، تُمكِّن القوةَ المتضمَّنةَ في القول. وبسلامة اللسان نضمن، نسبيا، العدل الاجتماعي، ونشر القيم الفاضلة، وكثرة طلب المودة . ولو افترضنا الطرح العكسي، فليس لنا إلا النظر في المرآة العاكسة لما حدث في العشرية السوداء قبيل انثناء القرن العشرين حيث دفعنا الثمن غاليا في أوطاننا العربية ـ لولا الحكمة المتعالية لاستفحل الأمر، على الرغم من أن أصداءه ما زالت كلْمَى، وأوجاعه أدْمَى؛ كل ذلك الضرر ناجم من أن إهمال اللغة، وقلة الاطلاع ، وانحسار القراة ، والتشبع بالمعلومة المسمومة، يؤدي بالضرورة إلى انغلاق الأفق وانسداد الرؤية، وحصر البصيرة في خانة ضيقة بتوجيه من الجهل إلى العنف، وكل ما يدور في فلكه من ارتدادات جارحة. ولعل المحصلة من وراء هذا الإهمال أننا جعلنا من براعمنا عصافير خشبية لا تقوى على الطيران ، لأن التلميذ في مدارسنا لم يزود باللغة التي تمكنه من التحصيل العلمي والتحصين الثقافي، والتحليق في الإبداع، والإمساك بالريشة الفنية، عوض الإمساك بالعصا ـ الآلة ـ الفتاكة؛ لذا فهو ـ بحسب رأي أحد الباحثين ـ أشبه ما يكون بالطائر الخشبي العاجز عن الحركة، أو الطائر الجارح المسلوب الروح والإرادة. فما الذي حول طيورنا الجميلة إلى طيور خشبية ، أو طيور جارحة؟

إن الهدف **التربوي /التعليمي** بحاجة إلى رؤية استراتيجية حكيمة ترعى مصلحة الهوية قبل مصلحة الحياة اليومية الاستهلاكية في جميع مكوناتها؛ لأن هذا

الهدف ــ المتبع حتى الآن ــ لا يقوم على برهنة الشيء بمسببه ، ولا يُخضِع المتلقي للملاحظة التحليلية ، أو الداعية إلى التبصر بالقدر الكافي، وإذا كنا نعترف بجهود القائمين على منظومتنا التربوية، وإذا كنا نقر بصعوبة التحكم في العدد المتزايد في الصفوف، وإذا كنا نعترف بوجود خطط منهجية جيدة، وإذا كنا نعترف بهذا وغيره كثير من جهود المعنيين بالأمر، فإن ذلك لا يكفي ما لم تحص الجهود بطرق منهجية ،أكثر صرامة، أو كما قال الفيلسوف ديكارت :" **لا يكفي أن يكون لديك فكر جيد ، ولكن المهم أن يطبق جيدا**".

فكيف لنا أن نطبق فكرنا جيدا ؟ وقبل ذلك كيف لنا أن نقرب لغتنا من هذا الفكر الجيد، والإبداع العلمي، الكشفي؟

منذ البداية نعترف أن لغتنا العربية تصارع المواراة ، وتعارك الأشباح، وتقاوم التحدي، وتجابه الظُّلمة التي تتخفى بتلاوين وأصقاع من صراعات، وتحولات سوداوية المسوغات في نتائجها. وهذا ما لم يستسغه الخطاب الوطني الغيور على لغته العربية التي تمثله، كون تلك المسوغات فتحت مجراها على التحايل، والتشويه ، والزيف. والحال أن اللغة العربية في ظل صراعات دون كيشوت بحاجة إلى سياسة رشيدة ، وقرار حازم لاتخاذ ما يلزم، حتى نرقى بلغتنا إلى مصاف الرقي الحضاري. وما لم نحل مشكل لغتنا المعبرة عن هويتنا لن نصل مهما سلكنا من سبل .

ولعل ما يدعو إلى الحيرة والدهشة ، وهذا ما ننتظر الإجابة عنه من الحاقدين على اللغة العربية، هو: كيف تناغمت بعض اللغات التي كانت ميتة مع متطلبات العصر ، مثل اللغة الأردية ، واللغة التركية التي استبدلت حروفها في عهد أتاتورك [1881 ــ 1938] الذي أراد لها أن تنافس اللغة الأوروبية، أو تلك اللغات التي انتعشت بذويها ، ونهضوا بها ، ولنا في ذلك أمثلة كثيرة تفوق كل حصر نذكر منها:

● اللغة الصينية المتناغمة مع متطلبات العولمة ، وأصبحت تهدد الغرب في عقر داره بمنتوجاتها المنافسة لصناعة الغرب المتميزة.

• اللغة الأردية التي أصبح لها تأثير على اللغة الهندية علـــى عراقتهـــا.كمـــا أن حروفها مقتبسة من الحرف العربي وهي اللغة الرســـمية فـــي باكـــستان بمـــسوغاتها النووية.

• **اللغة الكورية** المسماة بـــ " الهانكول " ويعود تأسيس حروفهـــا إلـــى العـــالم اللغوي " جو شيج يونج" (1913)، ولها ما لها في الساحة التكنولوجية اليوم.

• **اللغة الفارسية** التي أصبحت لغة نووية، وتناور الغرب في تقنياته العلمية، بعد أن باتت تقض مضجعه وتؤرقه، وتهدد العالم في **نظر الغرب**.

• **اللغة الفنلندية** التي يبلغ عدد سكانها خمسة ملايين نسمة وجعلوا من لغتهم لغة صناعية، حتى أصبح يتباهى كل فرد في العالم باقتنائه هاتف نوكيا المصنع في فنلنـــدا، ناهيك عن صناعات متنوعة تُستخلَص من هذه اللغة، على الرغم من قلـــة المتحـــدثين بها.

• **اللغة الدانماركية**: والتي لا يزيد سكانها عن خمسة ملايين نـــسمة، تميـــزوا بصناعة الألبان ومشتقاتها التي لا تستغني عنها أي مائدة في العالم سواء أكانت عاليـــة الحسب والمقام ، أو قليلة الخير وميسورة الحال.

• **اللغة العبرية**: وهي مثال بيِّن وواضح ، ولا أحد يتغافل عن تاريخ إحيائهـــا ، ومدى دورها في التكنولوجية النووية، ويحضرني هنا قول " **إفي لارنر**، الناطق باســـم عضو الكنيست : " لا يوجد عندي أي شك بأن المجتمع الاســـرائيلي إذا أراد الحفـــاظ على طابعه اليهودي عليه أن يعزز منزلة اللغة العبرية ". وأكد **لارنر** لوكالـــة فـــرانس برس: " **كمجتمع ودولة، فإن اللغة العبرية تشكل استمرارية لسلالة أجيال بدأت قبـــل الآلاف من السنين**"[7]. ومن دوافع غيرة اليهود على لغتهم ما ذكرته صحيفة "معـــاريف" الناطقة بالعبرية : " أن الكنيست وافق مبدئيا على مشروع قانون يطالب بالكتابة علـــى الواجهات، أو لافتات المتاجر، باللغة العبرية الواضحة، وإلا فان الرخص ستسحب من المتاجر والمطاعم وأصحاب المؤسسات التـــي تخـــالف هـــذه التعليمـــات". وأضـــافت

---

[7] علي الطالقاني : في دائرة الاستهداف... اللغة العربية مخاوف من اندثارها، الرابط : www.annabaa.org/nbanews/65/518.htm - 52k

"معاريف": أن" الكنيست يعارض كتابة اللافتات بالإنجليزية "، ويهدد بسحب تــراخيص الاعمال المخالفة"[8] .

أمام هذه الصور المعبرة، والدالة، عن قتامة الوضع عندنا في الــوطن العربـــي، أليس من حق برارعمنا أن تحمّل مسئولي الوطن العربي وزر ما آلت إليه العربيــة ، ومن تضليل مكانتها، والدور المنوط بها؟. ثم، أين هو دور المؤســسات المدنيــة منــذ أنشئت ، وحيثما كانت؟ أم أن دورها منحصر فقط في تعزيز مكانتها في البحــث عــن المناصب العليا ؟ متناسية دورها في الحفاظ على ثوابت الأمة ، واللغة الوطنيــة هـــي أحد هذه الثوابت المعبرة عن هويتنا. وإذا كانت قناعتهم بأن اللغة الأجنبية هـــي الحـــل الأمثل لمستقبلنا، فما الذي فعلوه منذ كانوا يدافعون عنها؟ ومـــاذا قـــدمت هـــذه اللغـــة للمستقبل الذي كان قبل خمسين سنة أوَانا لمستقبل مشرئب ؟ أم أن لكل شـــيء أوانـــه المخيَّب ؟ ومتى يحين هذا الأوان؟ والحبل على الجرار في انتظار هذا الأوان الزاهـــي الذي يرزح تحت رحمة حرف السين للتسويف الموعود، وتعهداته التي قد تـــأتي أو لا تأتي ،بعد أن كان آباؤنا ينظرون إلى المستقبل وكأنه في متناولهم ، أو على الأقل فـــي متناول أبنائهم. فلا التسويف أجاد [أي أتى بالجديد] ، ولا الأوان أفاد، ولا المـــستقبل ازدهر ، ولا اشرأبت إليه الآفاق ،ولا أفاد شيء في أوانه، ولا في غير أوانه ، وتهنـــا وتاهت بنا السبيل بين الأوان والهوان ، فأصبحنا في موضع هوْنٍ على هـــوْنٍ، وليتهـــا دار لقمان بقيت على حالها، بل على العكس من ذلك أرِيدَ لنا أن نرتقي إلـــى الـــصعود نحو الأسفل بكل جدارة، ومن دون استحقاق ، كوننا لا نستحق ما فعله الجهلاء باللغـــة العربية ، وجهابذة اللغة الأجنبية الذين رأوا في ضالتهم سبيلا، ولا يعرفون أنهـــم فـــي ضلال من أمرهم المشين.

وإذا كانوا يتذرعون بنماء اللغة الأجنبية بوصفها الحل الأمثل، فـــالأمر مـــردود عليهم، كون هذه اللغات الحية واكتسابها أمرا يعزز مكانة اللغة الوطنية ، وهذه حقيقـــة لا يمكن نكرانها، وليس في ذلك ما يهدد هويتنا التي تصونها لغتنا العربية عندما نتسلح بمكوناتها وضوابطها ، شريطة أن تتداول اللغـــة الوطنيـــة وفـــق الأســـس العلميـــة ،

[8] المرجع السابق.

والمنظور الاستراتيجي الوطني، حتى نتمكن من تحصين الذات من كل المقومات، ونجعل منها لغة تسوّق منتوجاتنا العلمية والفكرية والثقافية ؛ ولأن الثقافة عامل مهم لكل الشعوب والأمم، فلا يمكن أن تحقق غايتها في غياب الاهتمام باللغة الوطنية ، وليس غريبا أن نقول : من لا يملك آلية التمكن من لغته لا يمكن امتلاك ثقافة تؤكد وجوده في الحياة على مر العصور. وفقدان وعي الهوية، والانتماء، دليل على الارتماء في قاع ثقافة الآخر، والنيل من ثقافة الذات.

وفي مثل هذه الحال ليس لنا إلا أن نؤكد أن التمكن من اللغة العربية هو الحاجة العليا لزرع الوطنية " ونحن اليوم، والأمة العربية تقرع أبواب القرن الحادى والعشرين، وقد أثخنتها الجراح، وأثقلتها الحروب المصطنعة والهزائم المصممة، والاستسلام المهين أمام العدو، لنجد من واجبنا أن نعيد النظر في السياسات اللغوية في جامعاتنا ومؤسساتنا العلمية والتربوية . وليس ذلك لأنها تحدد هويتنا الحضارية فحسب، ولكن باعتبارها العنصر الأساس للتقدم العلمي والمشاركة المبدعة في بناء الحضارة الحديثة . وإن هذا الدور الفكري والعلمي الرائد الذي قامت به العربية في تاريخها الزاهر ولعدة قرون ، هو الدور الذي تدعى إليه في هذا العصر من أجل نهضة علمية وفكرية، تعيد للأمة العربية مكانتها بين الأمم ، وتحررها من ربقة التبعية الفكرية وتنقذ كياناتها المتهافتة من الضياع والاندثار"[9].

وأمام تعاجم اللغة العربية على ألسنتنا، وتراطن كلامنا، وتلعثم نطقنا بلسان محبوس ، فإننا نستغرب فوق ذلك أن يبتدع شبابنا عربية هجينة ، فاقت كل تصور، تسمى بعربية الدردشة ، وهي طريقة كتابة العربية بحروف لاتينية في الرسائل القصيرة عبر وسيلتي الشبكة العنكبوتية [الأنترنت] أو عبر الهواتف المحمولة، والكل يعرف هذه الإشكالية، ولا أحد يحرك ساكنا، والكل يتفرج بصمت مُطبَق على خطورة ما آلت إليه اللغة العربية التي صارت عسيرة في دارها، بدءا من ربِّ البيت الذي لم يَرْعَ أبناءه امتثالا لمقولة الشاعر :

---

[9] عبد الكريم خليفة:اللغة العربية والإبداع الفكري والعلمي في العصر الحديث، الرابط : www.arabicacademy.org.

إذا كان رب البيت بالدف ضاربا فشيمة أهل البيت كلهم الرقص

ويا للعجب من نتائج تمخُّضِ هذا الرقص، خاصة إذا كان الراقص طفلا ــ من دون وعي منه ، أو أجبر على المشاركة بفعل إيقاع الرقص ــ كيف سيكون غدا في أثناء تحمل المسئولية المنوطة به ، أيا كان نوعها، وما ذنب هذا البرعم الواعد في تحمل تبعات هؤلاء المهرة في الرقص المثير والفاضح، وأمام مسئولي أبناء الغد القريب (!...) وهل يعتبر لوم هؤلاء المحترفين، في الرقص، تجنيا عليهم ، أم على اللغة العربية؟

وحتى لا ندور في حلقة مفرغة لفزعٍ ، وذعرٍ، ما يحيق بلغتنا الجميلة من أذى من أولي الضرر بها، نظرا إلى هول ما نرى ، على حد قول الشاعر:

يا هولَ ما أبصرَتْ عيني وما سمعَتْ أُذني فلا أبصرَتْ عيني ولا أذني

في خضم ذلك نكتفي بإعطاء وجهة نظرنا في البديل الممكن، بحسب تجربتنا في حق وجاهة اللغة العربية ومكانتها المرموقة، والمغتصبَة قهرا وظلما. وعلى الرغم من أن هناك حلولا مطروحة من وجاهة مفكرينا، يمكن العودة إليها في مضانها، إلا أننا ارتأينا أن نَسُوق تجربتنا في هذه الإمكانات، وهي على النحو الآتي:

- مراجعة نظم التعليم في مدارسنا بما تستوجبه الطرائق الحديثة تمشيا مع التطورات العلمية المستجدة.
- إعطاء الأهمية القصوى في المراحل الأولى من التعليم لتدريس مواد : [المحادثة، والتعبير، والإنشاء] بوصفها زادا لغويا رصينا تمكن التلميذ ، الجيل الواعد، من التعبير بطلاقة عن مشاعره وطموحاته ، والتي ستنعكس إيجابا على وجوده بعد تحمله المسئوليات العليا ، ناهيك عن المسئوليات الأقل، فالأكثر أقلية، والمتدرجة إلى مسئوليته الأسرية.
- التركيز على الجانب الوظيفي في تعلم اللغة العربية.
- إدخال مفردات العصر عن طريق النحت والاشتقاق، أو عن طريق الترجمة السليمة، أو الاقتباس في حال أن تكون المفردة مصطلحا شائعا.

● الاهتمام بلغة الأطفال، والإعلاء من شأن أدبهم، والكتابة لهم بلغة ميسرة، يراعى فيها الجانب الوظيفي.

● توسيع خبرات المؤهلين وتعميقها، والكف عن تأهيل ذوي المعدلات المتدنية في مستوياتهم العلمية، وتشجيع المتميزين للالتحاق بالتأهيل بالمكافآت المادية والمعنوية.

● حث مؤسسات المجتمع المدني على التعامل مع اللغة الواضحة.

● إبعاد دعاة العامية من وسائل الإعلام.

● مراقبة الوسائل الإشهارية المستخدمة في جميع الأماكن ووسائل الإعلام بما يخدم سلامة اللغة، خاصة ونحن نعيش عصر الصورة ، التي أصبحت تشكل تأثيرا بالغ الأهمية، وسرعة فائقة في التأثير السلبي على أبنائنا.

● محاولة تقريب اللغة العربية ــ تدريجيا ــ من الأسواق التجارية، وفرض جباية على كل من يلصق لافتة باللهجة الدارجة ، أو باللغة الأجنبية من دون أن يقابلها ما يعبرعنها باللغة العربية على المَحال التجارية أو المؤسسات، أو التظاهرات، ومراجعة مضامين هذه اللافتات .

● زرع حب اللغة الأم في القلب بدل وجود هذا الحب على الشفين، وعند الضرورة.

● خلق مشروع حقيقي لتبسيط تعلم اللغة العربية ، على غرار المشاريع الحديثة التي توظفها المؤسسات التعليمية العريقية لغير الناطقين بلغتهم تحت مسمى "بورصة تعليم اللغات"، كما هو الشأن في آخر ما استجد من طرق لتعلم اللغات الحية مثل المشروع الذي بدأ الترويج له مؤخرا تحت اسم:**التاندم بارتنر**[10] **(Tandem)** مختصرا من اسم(Tandem-Sprachlernmethod)

● الاهتمام بإدراج اللغة العربية في تعلم المواد العلمية ــ في جميع المجالات ــ ضمن مناهج الجامعات ومراكز التكوين.

---

[10] وتقوم هذه المبادرة على أساس اشتراك طرفين يتقنان لغات مختلفة في تعليم بعضهما ببعض سواء عن طريق التواصل المباشر، أو الرسائل العادية، أو الإلكترونية، أو حتى بوساطة برامج المحادثة المباشرة على شبكة الانترنت.

وإذا لم نسرع في وضع حد لأهمال اللغة العربية سوف يصيبها ما أصاب اللغـة اللاتينية ــ مثلا ــ والتي تغيرت بمرور الزمن ، وتوزعت إلـى عـدد مـن اللغـات كالفرنسية ، والإسبانية، والإيطالية، فتصبح عندنا ــ لا قدر الله، بفضل وعده ــ لغـة جزائرية ، ولغة مصرية ، ولغة سورية ، ولغة خليجية ،...إلخ، هذا إذا صـح لنـا أن نمتلك القدرة على ذلك، وليس لنا أمام هذا الوضع إلا " **النفخ علـى الجمـرة كـي لا تنطفئ**"، وإلا سوف نسهم في اندثارها كمـا انـدثرت اللغـة البابليـة ، والكنعانيـة ، والأشورية ...إلخ . وإذا كان اندثار لغة ما ينتج من إهمالها من ذويها؛ الأمـر الـذي يجعلها تعوَّض بلغة أخرى، فهل تستفيق نخوة العروبة ، وشهامة المـسئولين ، وعـزة نفس الغيورين على اللغة العربية، وأنفة المتحمـسين ، وإبـاء المتـرفعين مـن ذوي الاستعلاء، وتراجع الحاقدين، وجدية المؤهِلين [بكسر الهـاء] وإخـلاص المعلمـين، وكرامة القائمين عليها، وحرص أولياء الأمور، ومن غير هؤلاء كثير، أن ينقذوا أبنـاء الغد القريب؛ للتعبير عن طموحاتهم بلغة واضحة، وكتابة أسطر سليمة، علـى الأقـل، حتى يكونوا في مستوى المسئولية في حينها. أين نحن من هؤلاء ؟ وهل نترك صرخة اللغة العربية ــ على لسان حافظ إبراهيم تذهب سُدىً حين استغاثت :

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي وناديت قومي فاحتسبت حياتي

ولدت ولما لم أجد لعرائسي رجالا وأكفاء وأدت بنـاتـي

وكيف نسمح لأنفسنا أن توأد لغتنا و"نبكيها مثل النساء لم نحافظ عليهـا" كمـا حـافظ الرجال على لغاتهم ، وبعد ذلك أين مروءة الرجال في زماننا ، وإين نخوة العروبة في واقعنا . ولكن، لعل مجيبا يجيب عن سؤال البحث عن الرجل الواعـد ، كمـا قـال صلاح عبد الصبور:

يا ... . اصبر
دنيانا أجمل مما تذكر

اصبر .... سيجئ..
سيهلّ على الدنيا يوماً ركبه

عبد القادر فيدوح

جامعة البحرين

في 2008/10/17 10:22:00 ص